



الإخوان المسلمون

3 ديسمبر 2014

أصابَ اليأسُ والقنوطُ بعضنا مما تعانیه الأمة على كافة الأصعدة، ونسمع: "ليس لها من دون الله كاشفة"، ومن يقرأ التاريخ يدرك أن سننَ الله ماضيةً، ولا تمكين دون ابتلاءٍ، فهما وجهان لعملة واحدة، أو هذه بتلك؛ والتمكينُ خاص وعامٌّ، ومنَّ الله على سيدنا يوسف عليه السلام بتمكينه الخاص من قلب العزيز، ثم مكّنه وهو في السجن، وبعد ذلك جاء التمكين العام فقال: "اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم"، وكأن الآيات توضح أنّ مَنْ يأخذ بأسباب التمكين فهو حليفه، وقيل: "وَلِتُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ"، ليس معناها تعبير الرؤى فحسب، بل أعم من ذلك، فتشمل تفسير الأحداث والوقائع وتوقع نتائجها، والتخطيط للنصر والأخذ بأسبابه؛ فالسنن لا تتخلف، ولا يخلو التاريخ من أحداثٍ مشابهة يستفيد منها أولي النهى، وهذا ما يُطلق عليه (فقه الواقع)، ولا بد أن يرتبط ذلك بالكتاب والسنة، مع الأخذ في الاعتبار واقعنا وقدرتنا، وحال أعدائنا.

والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، ومن هوانها عليه أن ترك كلاب المترفين فيها تشبع مع المترفين، وترك حملة الوحي فيها يهونون مع الوحي، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم أنتي أفضل ما أتيته عبداك الصالحين! فقال: "إذن يُعَفِّرُ جوادك وِبِرَائُكَ دمك!" حتى الجواد يُقتل مع صاحبه، فلا يستوي جواد الفارس وقربنه الذي يجزُّ عربة بضاعةٍ، ومن اصطفاه الله في الدنيا لا يرجع إلى الآخرة دون أداء رسالته، ولا يعود سالمًا من طعنات الدنيا الغادرة، فقد مرَّ القموسُ أحشَاءَ عمر رضي الله عنه، وطعن ابن ملجم عليًّا وقتل عثمان رضي الله عنهما، ولم ينبج سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأوغاد الأمة تأمروا ويتآمرون على كلِّ شريفٍ فيها، ولا تزال سلسلة الشهداء تطول حلقاتها ما ظلَّ صراعٌ بين حقٍّ وباطلٍ. وما أعلمه يقيناً أنّ أتباع محمدٍ لا يُدَلُّون، ولا يُقبلون الهوانَ ما بقي فيهم رجلٌ، أو طلَّت في نفس أحدهم فضيلةٌ، أمرنا الله بالجهاد لنبلغ دعوتَه في أصقاع الأرض، ونكون مصابيح هداية للبشر، لكن... أثرتا الغانية على الباقية! قعدنا وفتح الأعداء بلادنا، وفتنونا في ديننا، وأملوا علينا شروطهم؛ حكمَ أجدادنا بعدلٍ لا مثيل له في كلِّ الأمصار، والآن تُحكَّم بالباطل والقهر من بني جلدتنا؛ باع سلفنا نفوسهم وأموالهم ثمنًا للجنة، وزهدنا فيها وبيعها لأجل حياةٍ ذليلةٍ وكراسي معدودات، فـ تَبَّ لنا! عمائمٌ ولا رجال، ولحي ولا شيوخ، تصدعت قباب المنابر، ومادت أعمدة المساجد وتنتهك المحارم، نقوى على الرقص والخنا ولا نقدر على الخيل والقنا، ولا نفرق بين ذباب الصيف وذباب السيف إلا من رحم.

وأكادُ أسمعُ من يهذي... ندعو ولا يُستجاب لنا! ومن يهرق... لو كنتم على الحقِّ لُنصرتم! وثالثاً يقول: متى تتدخل عناية السماء فتقتص للمظلوم؟ فاعلم يا هذا أنّ التدخلَ الإلهي في الأرض قدرٌ لا يحابي، وسنةٌ لا تجامل، ولكلِّ مسلمٍ منّا دورٌ في الأحداث، وبتقررٍ مصيره تبعاً لما يعلمه الله في قلبه ونفسه، وطبقاً لما صدر عنه من أقوال وأفعال، "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"، ورحم الله من شعارهم "أصلح نفسك وادع غيرك"، ومن يجتهد ويسعى لإصلاح قلبه وتهذيب سلوكه وفق عقيدة صحيحة ومنهج قويم سيجعله الله ستاراً لقدرته يحقق به الآمال المنشودة، ويمنُّ عليه أن يجعله في فسطاط الإيمان الذي لا نفاق فيه، أما الآخر.. الذي يعيش في غفلة وقلبه لاهٍ عن الحقِّ فسيكون مصيره فسطاط الكفر والنفاق الذي لا إيمان فيه، ولا فسطاط ثالث للذين أذمنوا أنصاف الحلول، فلا إنصافَ في أنصافٍ! وهذه هي فتنة الدهماء التي لا تترك أحداً إلا لطمته لطمته، يصبح الرجل فيها مؤمناً ومُسي كافرًا، والثابت يقيناً أنّ المناق يتألم كما المؤمن، لكنَّ المؤمن يرجو المغفرة والرحمة والثبات على الطريق والنصر، أما غير المؤمن فلا رجاء له، ولقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله أيهما أفضل للعبد الابتلاء أم التمكين؟ فقال له: لن تُمَكِّنَ حَتَّى تُبْتَلَى.

والذي وقع في أزمة، والذي عُيِّب في سجن، والذي طُرد من بيته، والذي ظلم من جبار، والذي عاش في زمان الاستضعاف، كل هؤلاء قريبون من الله، فإذا وصلوا إلى مرادهم، وُرفِع الظلم عن كاهلهم نسوا الله إلا من رحم، وقليل ما هم، وهذا سرُّ طول فترة الإعداد والبلاء وقصر فترة التمكين والله أعلم؛ وأقول لكلِّ مُبْتَلَى: أبشر، فقد هبأ الله لك فرصة عبادة فاغتنمها قبل أن يُرفَع البلاء، وتأتي العافية، فتنسى، وليس لك أن تنساه. "إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهَادُ"، (غافر: 51).